# مؤشرات الخطاب والقيمة الجمالية
# في كتاب "التجربة الجمالية في الفكر العربي" لعبد القادر فيدوح"
# Indicators of discourse and aesthetic value in the book "The Aesthetic Experience in Arab Thought" by Abdelkader Fidouh


| محمد يونس* | سوريا |
|---|---|


**الإرسال**: 12/ 01/ 2021 **القبول**: 05/ 02/ 2021 **النشر**: 26/ 02/ 2021

**ملخص**

تعنى هذه الدراسة بالفكر الجمالي في التراث النقدي العربي، في ضوء كتاب عبد القادر فيدوح بعنوان " التجربة الجمالية في الفكر العربي" الذي جسد فيه العالم الحسي في في المخيلة المرتسمه من الظواهر الطبيعية، القسرية، حينذاك استبدل الفكر العربي بجفائه التعبير التصويري المجازي - دون وعي منه - بالمكون الفكري "الحضري "، وبذلك يفصل ممارسة الصياغة المدنية التي لم يفلح في خلقها من مشارب التفكير، معوضًا إياها باللجوء إلى استخدام مبدأ إنتاج الشكل التصوري في مجازه النابع من فكرة الشيء العياني، وتجسيده في قالب فني، فعكست الكلمة الشعرية صورة الشيء المادي المرتسم في مخيلة الشاعر، فاقتضى التطابق بين "**الكلمة والصورة**" و"**الصورة الرسم**" إلى التعامل مع الانسجام والإيقاع في الفن، وهو ما يمكن التعبير عنه بمقياس الجمال في أثر العرب الفني، الذي عبر عنه النمو الداخلي للأجواء النفسية المرتبطة براهن حياتهم القاسية، فكانت وظيفة الفن عندهم تجسد التحام الواقع بالذات الضائعة التي تحمل في تضاعيفها عبء الطبيعة في قساوتها

**الكلمات المفاتيح**: الجمال، التجربة، الشعر، العربي، تأويل، نص، أدب

**Abstract**:

This study is concerned with aesthetic thought in the Arab critical heritage, in light of Abdelkader Fidouh's book entitled "The Aesthetic Experience in Arab Thought," in which the sensual world was embodied in the imagination drawn from natural and forced phenomena. From it - the "urban" intellectual component In this way, he separates the practice of the civil formulation that he did not succeed in creating from the lines of thinking, compensating it by resorting to the use of the principle of producing the conceptual form in its metaphor stemming from the idea of the concrete thing and embodying it in an artistic form. "The word and the image" and the "graphic image" is to deal with harmony and rhythm in art, which can be expressed in terms of beauty in the artistic impact of the Arabs,

* محمد يونس، سوريا.

which was expressed by the internal growth of the psychological atmosphere associated with the stakes of their harsh lives. Which bears in its doubling the burden of nature in its cruelty
**Keywords**: Aesthetics, experience, poetry, Arabic, interpretation, text, literature

**الجمالية في الفكر العربي:**

من الصعب جدا تفسير القيمة الجمالية في الفكر العربي، فهي ليست مرتبطة بالمنهج الأرسطي، ولا أي منهج علمي يربطها بمعيار يمثله، كما أنه ليس هناك مسار زمني يحدد توجه تلك القيمة إلى نتيجة، بل تلك القيمة هي التي تفرض نفسها بتفسير لا يخرج عنها، وهي قيمة وليست معيارًا، وأما وحدة الزمن في تلك القيمة الجمالية فهي نشاط متعدد وبعدة توجهات، ولعل مسألة دراسة الأدب بتلك القيمة تحتاج الى معرفة ببعد ابستملوجي، يكون التفسير فيها ببصيرة نوعية، وفي هذه الحالة يحتاج إلى من يدرس الأدب بتاريخه التراثي من خلال الفكر الجمالي، ولابد أن يملك طاقة معرفية، وثقافة متعدد الآفاق، حتى تكون القراءة نوعية في استنتاجاتها وأي دارس لا يعنى بدراسة بنية التاريخ الأدبي، فهو قارى أنطلوجي، وفي ضوء هذا التصور نجد دراسة عبد القادر فيدوح عن "التجربة الجمالية في الفكر العربية" قائمة على التحليل الأنطولوجي لطبيعة الوجود الأساسية في الوعي العربي فقدم طروحات متميزة عن البعد الفكري المتحرر، وفي بعد آخر درس مواد من الأدب التاريخي العربي، وقد طبق القيمة الجمالية على نصوص أدبية تراثية مختلفة التوجهات الفنية، منها ما هو في نصوص شعرية، وأخرى نثرية، وغيرها تعتبر فلسفية، ومن الطبيعي أن يكون هناك اختلاف فكري جمالي بين وحدات الأدب والفلسفة من خلال نوع لسانيات اللغة وطبيعة الموضوع من حيث البعد اللغوي وتأثيره على الفكر الجمالي، من منظور أن امتزاج الفلسفة بعلوم اللغة والأدب والدين، وامتزاج الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية الوافدة، وهو ما يبرر وجود الوعي الجمالي في الفكر العربي، ولعل هذا التزواج والتلاقي هو ما دعم كفاية ناقدنا في إدراكه للمعاني المضمرة بمساءلته للظواهر المعرفية المختلفة، وهذا ما جعل أغلب الدراسات - قديمها وحديثها - تتفق على أن المنظومة الجمالية في الفكر العربي مقرونة بصفة الكمال، ولعل هذا الاقتران هو ما يبرر الموقف الجمالي لصفات الشيء في عالمه الأرضي، وارتباطه بماهية الوجود، وليس على أساس ارتباطه بما هو مقولة معرفية فحسب، ذلك أن الفكر العربي الإسلامي قد تناول مفهوم الكمال في صفته للعالم الآخر، عالم المبدأ الأول من مستويات ثلاثة: المستوى الوجودي الذي عبر عنه ابن سبعين - لاحقًا - حين تعرضه للكمال بوصفه "كنه الكائن" والمستوى المعرفي الذي مركز تصوراته المادية والمعنوية المستجدة من العالم وقيمه الإنسانية، وبين الأشياء المادية والخصائص المعنوية وضع المستوى المعرفي للكمال، في حين يتحدد المستوى الثالث في المعيار

الجمالي الذي على أساسه أصبح مقياس الكمال يمثل الأصل أو الجوهر في الجلال والجمال، وفي الموقف الجمالي منهما[1].

لابد أن يكون لعبد القادر فيدوح خبرة علمية متصلة بمعرفة الفكر الأنطلوجي، حيث يمكنه تحرير وحدة الزمن، فدراسة أدب تراثي ليس بالأمر الهين ربطه بالفكر الأنطولوجي، لبو لم تكن هناك دراية بعلم الأنطولوجية، وبالفطرة الجمالية التي تستدعي القيمة الجمالية كمعادل لها، ولتلك الفطرة دور أوسع وأعمق من المنهج العلمي، وقد ترتبط الفطرة بالبعد الفكري، فهي بوحدة زمن يعادل بالشكل التقريبي بعد القيمة الجمالية، وقد استثمر عبد القادر فيدوح تلك الفطرة العالية الحساسية في دراسته التطبيقات على النصوص الأدبية والفلسفية، أغنت الفكر الجمالي في الوعي العربي، وهذا ما يجعل النصوص الأدبية تنفتح على أنماط القراءة الجمالية، وكذلك كان الإحساس الإنساني لدى عبد القادر فيدوح، قيربا من الذائقة الجمالية الى الحس النقدي، ومن هنا الخطاب النقدي في نظره خارج التنميط، وكذلك إبداء السؤال المعرفي في الطروحات التي تصب في الإطار الفكري، حتى يمكن للقراءة أن تبلغ أبعادا فلسفية وتجدد بها قيما مضافة، وبذلك تكسر القراءة حدود الشك، وتبلغ حد اليقين الموضوعي.

درس عبد القادر فيدوح الأدب العربي بعد أن أدرك قيمته النوعية في المعارف الروحية، ففي أول الفصول المتعلقة بالبنية الذهنية للتجربة الجمالية، من خلال مرتكزات الأصول الفكرية، هناك تدرج تاريخي من خلال أصول الفكر الجمالي، ليبلغ مستويات الإدراك للقيمة الجمالية، وبعدها اتجه إلى جانب مهم وهو جانب جماليات اللا وعي، بوصفه منطقة حساسة، وهي قريبة جدا إلى البعد النفسي، وكانت القراءة بنوع من السياحة في بنية التاريخ بأبعاد مختلفة، فوحدة ما قبل الاسلام وتاريخها، وما سبقها من تاريخ بالحضارات النوعية في التاريخ؛ من مثل حضارة بابل الغنية بالتوصيفات الجمالية من نصوص أدبية بالرقم الطينية (clay- tablets) ، ومنحوتات جمالية أثرت في تاريخ الفن، وكذلك التواريخ الدينية التي سبقت الإسلام، التي يعتبر عبد القادر فيدوح أن لها تأثيرًا مباشرًا على الحس الأدبي العربي القديم من عدة وجوه، وقد اهتمت الدراسة بالتكوين الذهني الجمالي في كتابة النص الادبي التراثي، حيث اختار فيدوح أشد النصوص الأدبية صعوبة على تفسير القيمة الجمالية فيها، التي تشكل ذلك النوع الأدبي الشعري من النوع العمودي.

قدم خطاب عبدالقادر فيدوح تجربة غنية أثرت آفاق الدارسة، وهو ما نلحظه على وجه التحديد في القسم الثاني من مبحث عقلي في تفسير القيمة الجمالية، ستكون في مواجهة بين العقل

[1] ينظر، سعد الدين كليب: مفهوم الكمال في الفكر العربي الإسلامي، مجلة المعرفة. سوريا. ع 199/371.

المنطقي والقيمة الجمالية، وقد استثمر عبد القادر فيدوح منطقة مهمة في دراسته، فمنطقة الحس الجمالي تغني التفسيرات القادرة على فهم النصوص، وعن طريق الفهم يمكن استنتاج ما في النص من جماليات تعكس في بعدها الابستيمولوجي قيمة الموضوع من خلال الوحدات النصية، وقد اعقب الخطاب النقدي ذلك القسم، وتقدم إلى قسم يمثل بعد أفلاطوني إزاء القيمة الجمالية، وقد أشرت لنا عنونة القسم إلى تأكيد وجود بعد أفلاطوني، حيث علاقة الفلسفة لدى [ابوحيان التوحيدي] تشكل بعد إثارة بين الوجود والروح، والمدلول هنا هو مشروع التوحيدي، الذي يمثل فكرًا فلسفيًا من جهة، ومن جهة أخرى يمثل أدبًا راقيا، ويكون بينهما تفسير بلاغي لكل جهة، وقد درس عبد القادر فيدوح المشروع الفكري عند التوحيدي من خلال خطابه وبالمستويات الجمالية فيه، وقد تطور بُعد الدراسة إلى أبعاد دلالية، وبعد ذلك القسم كان هناك قسم حساس في الجانب الجمالي، يتعلق بدراسة الكشوفات الصوفية للقيمة الجمالية من خلال عدة مستويات كشفية بدأت من خلال رحلة حسية للبعد الصوفي، ومن ثم انتقل إلى ملامسة الوجود والعلاقة مع حقيقة الجمال، على اعتبار أن الوجود هو مثال لتلك الحقيقة أو هو انعكاس لها، وفي آخر الأقسام تناولت الدراسة جانبًا مهما له علاقة بعلم الأنثربولوجيا، يجمع بين الحس العلمي والخطاب الفكري، وكان ابن خلدون المثال الخاص في هذا القسم في التوافق والاختلاف، ولا يعسعني في هذا المقان ألا أن أقول كتاب – التجربة الجمالية – لعبد القادر فيدوح قد بين لنا وجود خطاب جدير في دراسة القيمة الجمالية من أبعاد عديدة، تستوجب الوقوف عندها، ودراستها بشكل شمولي من جميع جوانبها.

## الفطرة والإحساس

قدمت طروحات خطاب عبد القادر فيدوح إشارة نوعية لجانب الفطرة بوصفها إحساسًا جوهريًا لقراءة التاريخ الأدبي، ومن الطبيعي أن نمو الفطرة يبدو أفقيا، لكن الإحساس يجعله يكون رأسيا، كي تتصاعد نفس الفطرة في آفاق تعتبر مضمرات، وتحتاج إلى ما يصل إليه، وذلك التصاعد في الفطرة البشرية هو بنقاء، ويكون بخفة زمنية يصل بها إلى المضمرات، والنشاط البحثي في خطاب المؤلف بدأ من أصول مترتبطة بتاريخه، لكن تلك البداية ليس بنفس الإيديولوجيا، بل بنفس فطرة نقية، وهي التي تكون بطاقة روحية، التي لا يعادلها أي طاقة خارجية سواء أكانت علمية أم فلسفية، وهي التي تحمي الخطاب من التأثيرات الإيديولوجيا، وتدعم الوعي، وتجعله في يقين جوهري يتوسع، ويقترب من الحقيقة الجمالية أيضا، حيث إن توافق الفطرة والإحساس يعني أن وعي الكتابة يكون أشبه بسفر روحي، كونه يفك شفرات عصيبة، ويعالج طلاسم تاريخية، ويحولها الى إدراك ثابت بدلا من الشك وعدم الاعتقاد، وقد نمَّط الفطرة النقية في الكتابة بتجرد نوعي، اهتمت فيه الرؤية بتشكيل نظام جوهري لا يجعلها بمسار أفقي واحد، بل

تكون بمسارات عدة، وعبر وحدة الزمن بالفطرة التي تختصر التاريخ، لذا نجد أنساق الكتابة عند عبد القادر فيدوح تلامس بذات النفس الفطري أنماطًا أدبية ليست بأفق تاريخي واحد، ولا هي أيضا من توافق كلي خارج نمط الكتابة، بل لكل نمط كتابي زمن مختلف، وهذا ما يجعل الدراسة أنها تحتاج إلى نفس عميق، ولم يكن الدور لسلامة الفطرة في تأمين الخطاب فحسب، بل كان يمثل مَعينا فطريا، يقوم بتنشيط جوهر البصيرة، التي أسهمت في نضب النفس الإنسانية للمؤلف، ولا يقلل بجانب الأصالة عن أي قيمة الجمال في الفن، وفي البعد الوجودي يهدف إلى تحقيق الحققية في جانب العلم، فالفطرة بتعبير آخر هي البعد الأساس الأصيل، وهي مستقلة بذاته من جهة، ومن جهة اخرى مرتبطة بسيرورة الذاكرة العامة بقاعدة حفظ داخلي .

إن نسق خطاب عبد القادر فيدوح ليس بأفق علمي محدد، وهذا أحد أبعاد النسق الخطابي في دراساته، التي لا تستند إلى المنهجية الصارمة، الجامفة، بقدر ما يميل إلى كل ما من شأنه أن يضفي على الأطر النظرية سَمْت الوعي الذاتي، وهذا الوعي ليس منفصلا عن الفطرة، حيث إن الهوية تسعى الى التطور من خلال نقاء الفطرة، وبالتطور تربط الموهبة بالأصالة الفطرية، كي لا تكون الموهبة مجرد خطاب، وتجعل الخطاب بالبعد الإنساني، لذا تجد أغلب مواقف الدراسات في الكتاب بإحساس ملازم الفطرة، ونشير هنا إلى أن الدراسات ليست موجهة مباشرة الى النص المدروس، بل هناك سياحة حرة في أبعاد تاريخية واسعة ومتعددة، وهنا الفطرة في النقاء تلغي السؤال المهم الذي يحتاج في تفسيره إلى العلاقة بين النص المدروس وبين المتن التاريخي، ونحن أيضا نؤكد أن النص غير مفصول عن التاريخ، وفي التاريخ البشري إزاء النص نجد علاقة فرضية، حيث إن النص ابن التاريخ العام خارج مرجعيته الأساسية في الكتابة، وقد أكد لنا ذلك الخطاب، في بنى التجاور البشري، حيث هناك تلامس ثقافات، والتبادل في السلع هو تبادل تراث، وكذلك تأثير الأديان ومعتقداتها، وكذلك الذاكرة البشرية أيضا، وأكد لنا ذلك فيدوح حيث يرى ( للشعر العربي القديم وحدته الخاصة به، وتظهر هذه الوحدة من خلال تأثير الواقع في الأبنية الذهنية للشاعر ونظرته للحياة وانتمائه اليها)[1]، وذلك الالتجاء هو بفطرة عطشى إلى عين ماء روحي لتبث اليقين لديه، وأي من الشخصيات الأدبية التي اختار المؤلف نصوصها، وكأن المؤلف يبحث عمن يحرك ذاكرته إزاء التاريخ، وفطرة الكتابة لديه ليست مفصولة عن التاريخ حسب إشارات الخطاب، وطبيعي هنا أن الفطرة تصور أن الشاعر ابن الحياة وأن نصه ابن الوجود، والحياة بتفاصيلها المتعددة تؤثر في كيان المؤلف، والنص الوجود يقربه من المعنى؛ وليس معنى ذلك أن

[1] عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي، ص 52

الوعي العربي في نظر عبد القادر فيدوح أن كان منفصلا عن الوعي المعرفي بوجه عام، والفلسفة اليونانية على وجه الخصوص بل نجده يقر بأن الفلسفة اليونانية قد أفادت الذهنية العربية، ولوّنتها بصبغة متميزة، حتى شملت في ذلك فكرة تطبيق القياسات المنطقية على النحو العربي، عدا ما أحدثته في ألوان الفنون الأخرى التي اتخذت سبيل التفكير الفلسفي، بغرض استكشاف المجاز العقلي الذي من شأنه أن يعيد تشكيل المدركات بما يدفع الحدس التصوري إلى استبطان الذات، واكتناه عالمها الاستشرافي، لذلك أقبل القدامى على نقل التراث اليوناني الفلسفي والأدبي وتأثروا به، وكان من ضمن ما ترجموا منه كتابان من كتب أرسطوا هما: كتاب الخطابة، وفن الشعر، ويعدان أساسًا مهمًا من أسس علم الجمال.. ولا شك في أن المفكرين والفلاسفة العرب أمثال أبي بشر متى، ويحيى بن عدي، والكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، لا شك في أنهم عرفوا أفكار الفلاسفة والشعراء وخطباء اليونان، ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية، وكان يمكن أن يفيدوا فوائد كبرى في مجال علم الجمال والنقد الأدبي، ولكن اهتماماتهم كانت تتجه في المقام الأول إلى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام[1]، غير أن ذلك لا ينفي اهتماماتهم بالظاهرة الجمالية الواردة ضمن سياق حديثهم، سواء من خلال تعرضهم لجملة من المفاهيم الفلسفية، أم .تبعًا لذلك .عبر بعض الفرضيات على هامش دراساتهم، ومع ذلك فلا تباين بين كلا الاتجاهين مادام المراد واحدًا، يبحث في معنى المنظومة الجمالية التي تنظر إلى الكون في امتداداته الحسية والعقلية.[2]

**سؤال المعرفة وثنايا التاريخ**

مثلت بنية خطاب عبد القادر فيدوح عدة توجهات منها ما أشرنا إليه في جانب الإحساس والفطرة، وهناك جانب آخر يمثل بعدًا مهمًا ضمن سياق ما تمليه ما بعد الحداثة، الذي يمثل أسئلة معرفية بنشاط زمني حيوي، حيث تسعى إلى إنتاج أفكار تدعم الجانب الأساس للخطاب بالاتجاه نحو التاريخ، بحسب ما يهتم به خطاب المؤلف في ضوء سوسيولوجيا المعنى التاريخي من جهة، ومن جهة أخرى في ضوء فكرتي الزمان والمكان أيضا، وطبيعي هنا يحاول المؤلف بخطابه أن تتقصى النتائج التي يحتاجها إليها البحث النقدي، وهذا الجانب مهم في طرح اسئلة تتجاوز الحد المعمول، وتسعى إلى بلوغ المجهول، وتفكك ذلك المجهول لتخلق نتائج جديدة مهمة، وهذا المعنى المهم في طرح أسئلة معرفية، فهي لا تقف عند وحدة زمنها بحد علمي، بل تسعى إلى بلوغ ما هو

[1] من مثل الفلاسفة، فرق المعتزلة، الأشاعرة، المتصوفة.

[2] ينظر، عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي، ص 64،65

مضمر، وفي بنية التاريخ التي تناولها المؤلف، وبها جوانب مظلمة، وفي الجانب التدويني على وجه الخصوص، حيث كان العالم القديم بلا تدوين عضوي، بل هناك تدوين شفاهي، وهذا الجانب مؤكد فيما يدعمه الأدب، حيث كان على الشاعر في العصر الجاهلي أن يحفظ ألف بيت ليبلغ حد الشاعر، وقد عالج عبد القادر فيدوح تلك الأفكار وبيَّنها، وفي الجانب المعرفي بحث عن حلول منطقية غالبا ما تكون في الجانب العلمي، وأيضا خلق أفكار إزاء القيمة الجمالية في الجانب الآخر، الذي هو جانب المعرفة الحركية بوصفها نشاطًا زمنيًا، أصبحت معلامه في حكم بنية التاريخ، اعتقادا منه أن الاندماج النفسي مع العالم الخارجي مظهر من مظاهر الشعور الجمالي الذي اعتمده الشاعر الجاهلي في إبداعه من خلال إرواء حاجته الملحة، والتئامها مع عالمه الداخلي، فعلى هذا يقوم جمال الإحساسات والجمال، والجمال لا يستبعد الفائدة، بل يتضمن وجود إرادة تلاؤم بين الوسائل والغايات، وتحاول أن تبلغ هدفًا من الأهداف بأقل جهد ممكن، فعلى هذا يقوم جمال الحركات [1].

قدم خطاب عبد القادر فيدوح نشاطًا معرفيًا واضحًا في أغلب الأقسام في كتابه – التجربة الجمالية – يسعى من خلاله إلى كشف مواقع ليست مجهولة تماما، بل نقول إنها غامضة إلى حد كبير، وتحتاج إلى أسئلة نصفها قائم على ما تتضمنه من أجوبة، هي بحاجة إلى أسئلة، وقد كان نشاط الخطاب في جانب أفقي يتضمن سياقات متجهة إلى نتائج بعينها، وأيضا هناك نشاط غير أفقي يحتاج إلى الأجوبة المنقوصة ليكملها، وهذا الجانب لا يقتصر على النصوص التطبيقية التراثية، بل نفس القدر في جوانب تاريخية، ذات الصلة بالنص بشكل مباشر، أو التي تلك النصوص المرتبطة بالتاريخ فقط، كونها أشبه بالدلالة الالتزامية التي تتيح لنفسها الالتزام النوعي من جهة، ومن جهة أخرى تتيح للتطور الاستمرار، كي تدعم هدف الوعي المعرفي في نشاطه الخاص، وكي تمكنه من أن يلامس بالمعرفة القيم الجمالية، والمؤلف في خطابه قد التزم القيمة الجمالية، وهي صراحة قيمة، وليست منهجًا مهما يسعى إلى أن يؤطرها؛ لذا هي أمر صعب نوعا ما، وليس من الممكن السيطرة عليه فكريا، إلا إذا كانت هناك طاقة متمكنة بسعة عميقة في نشاط معرفي متعدد الأبعاد، وهنا لابد أن نقر بأن عبد القادر فيدوح كسب القيمة الجمالية وتسخيرها فكريا كنشاط جمالي يدعم النصوص التراثية، التي هي في اللحظة الآنية أشبه بجريدة الشهر الماضي لدى التلقي، ولا تجدي في التأثير على منظومة التلقي، وقد تمكن عبد القادر فيدوح

[1] جان ماري جوتو: مسائل فلسفة الفن المعاصرة، تر / سامي الدروبي. ص 12 ، عن الجمالية في الفكر العربي، ص 31

من تنظيم وعيه ليجعل القيمة الجمالية فضاء لمادة كتابه، بوصفها كيانا يحتاج إلى فضاء نوعي، وهو فضاء ممزوج بنقاء جمالي؛ كأن يجعل ذلك الكيان المكتوب يزداد قيمة، بما يشكل تأثير القيمة الجمالية على نصوص التراث، بتوصيف نوعي يجعلها أشبه بلوحة حروفية، وهذا يعني أن فكر عبد القادر فيدوح قد هدم التراث الشعري وأعاد إنتاجه من جديد، من منظور أنه لا يحدد الفهم المعرفي لهذا التراث الشعري بالتوصيف العام، بل من خلال ما أكدناه من أنه فضاء جمالي، أصبح من خلال الفكر إزاء القيمة الجمالية وتفسيرها بوعي خلاق، بل أصبحت النصوص بعلاقة بالقيمة الجمالية على الرغم من أن هناك علاقة وثيقة بالوحدة التاريخية، وجعل الجانب المعرفي تناغم ايقاعيًا في عموم الكتابة، وليس فقط في النصوص التراثية التي هي بسياق عمودي وكان إيقاعها واضحا جدا، خصوصا أن أغلب النصوص هي ترن بتعبيرات شعرية، لكن ذلك الصوت الإيقاعي ليس له أهمية في اللحظة الحاضرة، لولا المعالجة النوعية في الفكر الخلاق، ولو ننظر ببصيرة إلى أي متن من المتون نجد هناك مفارقة، حيث العرض الفكري كان واسعا إلى حد كبير، فيما التحليل الفهمي للنصوص الشعرية كان يحدد نفسه.

يؤكد لنا كيان المادة المكتوبة في جانب عرضه بصريا ومعرفيا، وجود جانب نظري من جهة وآخر مشترك به جانب تطبقي، ولكل جانب دوره في المادة المكتوبة، رغم أن الجانب النظري بصريا وعرفيا يؤكد لنا وجود وضوح كبير وواسع وعميق، وقد أكد لنا قيمة نوعية في المادة المكتوبة الواسعة الأفق، حيث هي مجال فكري بظاهره، وبجوهره هناك معرفة نشطة إلى حد كبير، وتثير أسئلة نوعية، تدرك نصف إجابتها موجودة لديها، وأما النص الثاني تسعى إلى بلوغه، وأن تفسير تلك الاسئلة وعلتها غالبا ما يكون عرضا مباشرا غير أن هناك ما نلمسه فيما بين السطور من أسئلة ضمنية، لكننا نحتاج إلى دقة عميقة لتمحصها، كونها ليست ملحة؛ فتبدي إشكالا واضحًا في الكتابة النظرية الفكرية، وطبيعي أن يكون ذلك الاشكال قائما على الشكوك بخاصة في الدراسة التطبيقية التي تبناها من حيث الفضاء الجمالي، لكن دراية ووعي خطاب عبد القادر فيدوح كان بسعة حذرة، وعمق نوعي، وبدراية وإدراك تام في تفسير المواد الأدبية، التي نمتح منها ما تماثل في التراث الشعري العربي، وأخرى تمثل الفكر الفلسفي، وأخرى تمثل البعد الصوفي.

## البلاغة وتأطير المنهج

شكل خطاب عبد القادر فيدوح تجربة نوعية صريحة في طروحاته النظرية والتطبيقية أيضا، التي جعلها بقيمة بلاغية اعتبارية في الاشتراك الجمالي بينهما، ورسخ الخطاب امكانيته الفكرية، في سياقات الكتابة، وتلك مقدرة منهجية من جهة تكاملية، ومن جهة أخرى هي تمتلك طاقة داخلية عالية وبوحدة زمن نشط الحركة الفاعلية للوعي المعرفي العربي، الذي كان له دور في كسب قيم مضافة، منها ما هو أرسطي فيكون في جهة المنهج، ومنها ما يكون أفلاطوني معتدل،

فيكون في جهة مقابلة للمنهج، وهي جهة المعرفة خصوصا، وقد تمكن ذلك الأداء الكتابي من توازن نوعي، وكذلك أوجد علاقة بين الجهتين عبر الطاقة الجمالية، كونها تعتمدها المنهج عبر نظريات تاريخية كمفهوم مؤطر علميا، وأما فضاء الفلسفة والفكر والمعرفة الابستملوجية في الطروحات فإنها تتطور في مفاهيمها بشكل كبير عبر وحدة الزمن ونشاطاها، ليتمكن من الوصول إلى التراث الأدبي العربي، كي يعود من جديد بعد أن يجعل له فضاء جماليا واسعا ومثيرا للتلقي، من منظور أن قوانين الطبيعة المعرفية تقتضي منا أن نخطو فيما يدعو إليه نضج الوعي الجمالي. أضف إلى ذلك أن سبل المعرفة اليوم في تنامٍ متزايد بفضل التطور المتسارع، مما يجعل آفاق معرفتنا تتنافس على كسب رهان "كيفية التلقي" التي تحتاج إلى كثير من التهذيب لمسايرة العصر الذي نعيش فيه[1]

يمثل هذا التقابل بين الجانب النظري، والجهة المقابلة الملتزمة بالجانب التطبيقي - في خطاب عبد القادر فيدوح - حضورا وظيفيا في الصيغة الخطابية، ولكل جانب دور في تمثيل الخطاب، ودور في الكتابة أيضا، فالجانب النظري لا يمثل فقط وجهة نظر إزاء القيمة الجمالية، التي نلمسها ببؤرة في ثنايا الخطاب أحيانا، وفي مرات أخرى نجدها قد أدت دورًا في ترسيم الخطاب بنسب متفاوتة؛ ففي صفحة -31- هناك إشارة ضمنية لعدم إعلان الموقف الفكري بوضوح تام، حيث رسم الخطاب لنا ملاحظة بتصور، كما جاء في قوله "ولعل أول ما يسترعي انتباهنا عند اطلاعنا على التاريخ الفكر الديني للأمم القديمة، ومنها الأمة العربية أنها كانت على صلة وثيقة بعضها ببعض، وتشترك في كثير من العبادات[2]، وهنا نجد أن التاريخ هو وثيقة، والتفاعل التاريخي بين الأمم هو داخل تلك الوثيقة، وفي جانب الواقع يمثل مظهر التاريخ وشكله العام، أما مضمون التاريخ فيتضمن اختلافًا نسبيًا بين أمة وأخرى، من منظور أن هناك عوامل مشتركة كما أشار لنا الخطاب، غير أن ذلك الاشتراك ليس بالفعل بل في المفهوم، على نحو مت تطرق له الخطاب من أن هناك تقاسمًا في العبادات بين تلك الأمم الدينية، حين بدأ الخطاب بإشارة تمثل قراءة تحليلية وليس من منظور التفسير للوثيقة التاريخية، وهنا نستطيع أن نقول إن اليقين قد تجاوز الفهم في الخطاب، كون التاريخ ليس مدونا، وليس هو اليقين المدرك بالاتفاق؛ لذا ربطه الخطاب في اطلاعه له بما هو وارد، وهنا يكون التاريخ عبر زاوية وجه النظر.

[1] عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي، ص 107

[2] ذات المرجع، ص 31

مثلت البلاغة الجديدة لأطر ما بعد الحداثة نقلة نوعية في خطاب عبد القادر فيدوح، بوصفه سِفرًا فكريًا من خلال مستويات التطبيق على نصوص أبرز فيها القيمة الجمالية، وقد أكدت البلاغة في منظوره نشاطًا روحيا للبعد الفكري من جهة الإحساس بالقيمة الجمالية، حيث إن الموهبة هنا تصاعد من إيقاعها دون أن يقف عند حد علمي مجحف، بل هناك سعي فيه إلى الانطلاق بالأسئلة إلى حدود أقرب مما يقرب المتلقي من نصف الاجابة الموجود في الإحساس الفكري، كما سعت الدراسة البلاغية إلى بلوغ منطقة الفراغ، كي تسد ثغراتها، في التصورات الرحيبة، التي تملأ الفراغات بقيم فكرية خلاقة، وفي هذا الدور الحيوي هنا ما يحسب لإمكانيات البلاغة وطاقتها المنتجة، وقد يتضح ذلك في تحليل البنى التاريخية بعيدًا عن المنهج العلمي الصارم، وبالشكل المباشر، بل هناك سرديات أنابت عن البعد المترابط بالمنهج العلمي قد أدت دورها، وفي ضوء ذلك استثمر خطاب عبد القادر فيدوح الجانب المهم في الكتابة، من منظور أن وجود العالم القديم عالم بلا ملامح واضحة، بل يحتاج المحلل إلى طاقة كبيرة في البلاغة كي يمكنه بلوغ ملامح لذلك الوجود، وقد اعتمدت تلك الطاقة البلاغية في تنشيط الفكر العلمي وتطوير وحدته الزمنية، وهنا قد تنوع الخطاب بإيقاعات متعددة ومختلفة، ولعبت وحدة الزمن دورًا في جعل التراث حيًا، وليس كما في هو بلا نفس، وهو ما يؤديه دور البلاغة في التفسيرات التطبيقية التي من شأنها أن تبرز في تحليلاتها الأفقية استكشاف المضمر، رغم أن مظهر التفسير يبدي لنا غير ذلك، ولكن البلاغة بطاقتها ألغت فكرة البعد العمودي بوصفه مثالا أساسيا للكتابة، لذا تجاوز الخطاب التنميط، وتحرر منه عبر الطاقة الخلاقة التي تنبعث من مفاهيم البلاغة التي نعتبرها بلاغة ما بعد الجديدة، بوصفها تمثل آفاق ما بعد الحداثة.، ولعل هذا ما أكده عبد القادر فيدوح في أثناء تعرضه إلى القيمة البلاغية وعلاقتها بالوعي الفكري في التراث: إن مكانة الأطر الجمالية ماثلة بوفرة في سياق حديثهم عن فنيات التعبير التي تحدد جوهر اللفظ الفني، لذلك كان حديث نقادنا عن مقاييس الصيغة الفنية منصبًا على مدى قدرة الوعي على التصوير، وفق الأسس الجمالية التي يتحكم فيها التناسب في بناء العبارة، ولنا أن نستشهد لهذا بكل ما ورد عنهم في أثناء تعرضهم إلى مكانة اللفظ في استحسان صورته السمعية بما تحمله من دلالة قصدية، بحيث "يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، تتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه"[1] معنى ذلك أن جميع

[1] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار قهرمان للنشر 1984، ص 284. ينظر أيضا، التجربة الجمالية في الفكر العربي ص 56

أبنية اللغة في المنظور النقدي القديم كانت تقوم على أسس معمارية محكمة، لذلك أعطوا مكانة خاصة للذوق.

أن حيثيات خطاب عبد القادر فيدوح في كتابه – التجربة الجمالية في الفكر العربي – شكلت عدم التصنيف، رغم أن المنهج العلمي المؤطر للتطبيقات كان أكثر فاعلية من البعد النظري، توقدم به الباحث إلى الحدود التي ترسمها البلاغة الجديدة في مجالها الفكري، ما دامت أصولها داخل مجال المنهج العلمي، وبما يخوله النشاط المعرفي في الكتابة بما يكسر حدود الشك، ويحوله فيما بعد الى يقين؛ بعد اكتشاف مناطق غير مكشوفة سابقًا، وهذا ما زاد من قيمة البلاغة، وأتاح لها التنوع الإيقاعي، وتطور وحدة الزمن من الجانب الثابت إلى جانب متحرك في عدة اتجاهات، وقد استبدلت رؤية النشاط العلمي ببديلة، وتفاعلت مع بطاقة الااستنتاج المعرفي المؤدي إلى طاقة الإدراك العلمي من جديد، وهو ما أشار إليه الخطاب بصيغة عالية فكرية، على نحو ما تطرق له ابن خلدون في كسب الحدس المعرفي الذي تجاوز به حدود العقل النظري والرؤية المثالية[1]، مثلما كان البعد النظري يتمثل في البلاغة النوعية التي تجاوزت الأفق العام لها في مدلالها؛ وبذلك المدلول اكتسبت البلاغة طاقة نوعية في كشف الملتبس في مثاليات الفهم للقيمة الجمالية، التي زادت الكتابة عمقا، بدلا من أن تكون نسقية أشبه بالمكرور، وتجاوزت الموجهات المحددة،

ومن هذا السياق كان خطاب عبد القادر فيدوح عبارة عن تأمل روحي من جهة البنى الفكرية المرتبطة بمتن الكتابة، ومن جهة أخرى كان أقرب من الاستعداد العلمي الذي لا يقيس بالمعيار؛ بقدر ما يملك من مهارات وعي متقدم للبرهنة والاستدلال، وتحقيق النتائج بملامح فكرية، لكنها بيقين تأويلي، وهذا ما جعل طبيعة الكتابة لدى عبد القادر فيدوح في كتابه – التجربة الجمالية في الفكر العربي – تجربة تمثل طاقة نوعية بالبرهان الذي كان يستمد أدواته المعرفية من البلاغة الفكرية، لتنشيط المتن الكتابي، وتجاوز الحد البلاغي المقنن بالمعايير الضابطة التي أسستها البلاغة التقليدية، اعتقادا منه أن التخلي عن معايير البلاغة الكلاسيكية من شأنه أن ينتج كشوفات مهمة، ترسم لنا مسار الكتابة عند التحليل الفكري للقيمة الجمالية بطاقة خلاقة في من دون الاستغناء عن الأفق النظري بفطرته الأصيلة النقاء، وبما تتضمنه من أسئلة معرفية تمتلك نصف إجابتها، وهو ما لمسناه في الجهد التطبيقي الذي أثبت لنا مقدرة علمية جديرة ومتقدمة ومتفوقة برهانيا.

**قائمة المراجع**

[1] عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي، ص148

التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار قهرمان للنشر 1984، ص 284.
جان ماري جوتو، مسائل فلسفة الفن المعاصرة، تر / سامي الدروبي، ص 12 ، عن الجمالية في الفكر العربي
سعد الدين كليب، مفهوم الكمال في الفكر العربي الإسلامي، مجلة المعرفة. سوريا. ع 199/371.
عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي المعاصر، دار صفحات، سوريا 2015